





الأصول التاريخية للفرقة الاباضية

تأليف
الدكتور عوض محمد خليفات
الجامعة الأردنية
عمان ـ الأردن

العدد ٢٧



سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

الأصول التاريخية للفرقة الاباضية

تأليف
الدكتور عوض محمد خليفات
الجامعة الأردنية
عمان ــ الأردن

الطبعة الثانية

الأصول التاريخية للفرقة الأباضية

تأليف الدكتور عوض محمد خليفات
الجامعة الأردنية
عَمان ـ الأردن

كانت مشكلة الخـــلافـة أول مسألـة اشتـد فيهـا الخلاف بين المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ، وخاصة أنه لم يرد في القـرآن الكـريم نص صريـح يتم بموجبه اختيار رئيس الـدولـة، كما أن الـرسـول عليـه السـلام لم يعـين الشخص الـذى سيتـولى زعامة المسلمين بعده. وهكذا فقـد وضعت وفـاة الـرسـول ﷺ الأمـة الاسـلامية أمام مشكلة خطـيرة ألا وهي مشكلة خلافـة الـرسـول ﷺ وقيادة الأمة والاشراف على شؤ ونها من الناحيتين الدينية والـدنيـويـة. أمـا النـاحية الدينية فقد اكتملت قواعدها ورسخت جذورهـــا، وقـد أكـد ذلـك قول الله تعـالى: «اليـــوم أكـمـلـت لكـم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الاســلام دينـاً». ألا أن هذا الدين لابد له ممن يحميه ويعمل على إنتشاره في مناطق جديدة لم تصل إليهـا الدعوة من قبل، وخاصة أن الدين الاسلامي دين عالمي ليس مقصـــوراً على العـــرب وحـدهم ولا محدوداً بالجـزيـرة العـربية. ومن الناحية الدنيوية لابد للأمة من قائد وزعيم يحافظ على المكتسبات التي أحرزتها الأمة في ظل الاســلام. وبعـد منـاقشـات ـــ وأحيـانـاً مجادلات

عنيفـة ــ وقي الله الأمـة شر الفـرقـة والنـزاع واجتمعت كلمتهم على انتخــاب أبى بكـر الصـديق أول خليفـة للمسلمـين. وقبـل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى عهد ــ بعـد إستشـارة كبار الصحابة الموجودين في المدينة ــ إلى عمـر بن الخطـاب. وبينما كان عمر بن الخطاب يصارع الموت، بعد أن تلقى طعنات خنجر أبي لؤلؤة الفارسي المسمومة، فكر في أمر الأمة من بعده وأستقر رأيه على أن يجعـل أمـر الخـلافـة شورى، وقـد حددهـا في سـتـة من الصحــابـة هم علي بن أبي طالب، عثـمان بن عفـان، طلحـة بن عبيـد الله، الزبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف وسعـــد ابن أبي وقـاص. وقـد بين عمـر أسبـاب اختياره لهؤلاء النفر من الصحابة حينما قال مخاطباً إياهم «إني نظـرت فوجـدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض... إني لا أخــاف اختــلاف النــاس عليكم إن اسـتـقمتم ولكني أخــاف عليكم اختــلافكم فيختلف النـاس». وبعـد مناقشات واستشارات دامت ثلاثة أيام بويع عثمان بالخلافة في ذي الحجة من عام ٢٣هـ. وفي عهـده واجهت الأمـة الاسلامية أخطر محنة مرت بها بعد حروب الردة، وهو ما عرف في التاريخ باسم الفتنة.

كانت الفتنـة في عهـد الخليفة عثمان حدثاً خطيراً ساعـد في ازدياد شقة الخلافة بين المسلمين حول منصب

الخلافة. وقد أدت التطورات التي حدثت فيما بعد، وخاصة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان، إلى بروز فرقة المحكمة أو الخوارج كما سماها أعداؤها والحرورية أو الشراة كما سموا أنفسهم.

انشقت هذه الجماعة على علي بن أبي طالب عندما أصر على إنفاذ التحكيم، ونادت بإنتخاب خليفة للمسلمين عن طريق الشورى دون إعتبار للنسب القبلي أو الأصل العرقي. وكان المحكمة أول من تحدى سلطة قريش عملياً عندما انتخبوا عبدالله بن وهب الراسبي إماماً لهم ونادوا بقية المسلمين للانضمام إليهم. وبعد معركة النهروان، اعتزل أفراد منهم أصحابهم وتوجهوا صوب البصرة حيث أخذوا يدعون لمذهبهم سراً خوفاً من بطش الولاة الأمويين. وقد تزعم هذا الفريق أبوبلال مرداس ابن أدية التميمي، وكونت هذه الجماعة البذرة التي أنتجت الفرقة الأباضية أو أهل الدعوة كما كانوا يسمون أنفسهم.

شهد أبوبلال، زعيم هذه الجماعة المعلن، معركة صفين مع علي بن أبي طالب، وأنكر التحكيم، واشترك في معركة النهروان مع المحكمة ضد علي بن أبي طالب. ويبدو أنه لم يكن مرتاحا لما حدث من خلاف وفتنة بين

المسلمين، وصعق لما حلّ بأقاربه وأقرانه من قتل وتشريد على يد إخوانهم في الدين، ورأى أن القتال بين أتباع العقيدة الاسلامية السمحة بهذه الطريقة الشرسة أمر لايصح، فانسحب مع نفر من أصحابه، وأقام مع أبناء عمومته من قبيلة تميم، الذين كانوا يشكلون جزءاً هاما من سكان البصرة انذاك. وكان يتزعم هذه القبيلة الأحنف بن قيس السعدى التميمي (ت ٨٧هـ/٦٨٦م) وينتمي إليها عدد وافر من أبرز الشخصيات السياسية والفكرية.

وفي ظل الحماية والترحاب اللذين لقيهما أبو بلال وأصحابه من الأحنف وقبيلته، أخذ مرداس ينشر آراءه وأفكاره مؤثراً طريق الاقناع والمناقشة على الحرب والعنف. وأنكر قتل المخالفين واستعراض الناس على طريقة متطرفي الخوارج. ودعا أتباعه بأن لا يجردوا سلاحاً ولا يقاتلوا أحداً إلا إذا تعرضوا للعدوان وأجبروا على القتال. وبلغ من حسن سيرته أن عدداً من الفرق والجماعات الاسلامية فيما بعد، كالشيعة والمعتزلة، ادعت نسبته إليها واعتبرته واحداً من أبرز أتباعها. وقد نشط مرداس في البصرة لنشر دعوته وأفكاره. وكان يعقد المجالس والمناظرات لاقناع الناس بآرئه فانضمّ إليه عدد كبير من الناس وأخذ عدد أنصاره يزداد ويتعاظم حتى أنهم ابتنوا لهم مسجداً خاصاً في البصرة. ويبدو أن دعوته

لاقت استجابة كبيرة جعلت عبيد الله بن زياد، والي العراق، يقول: «لكلام هؤلاء (مرداس وأتباعه) أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع». وانضم إلى هذه المجموعة الفقيه المعروف جابر بن زيد الأزدى الذى لم يلبث أن أصبح رئيس الجماعة والمؤسس الحقيقي للحركة وانضوى الجميع تحت امرته بما فيهم أبو بلال نفسه ولكن جماعته آثروا أن لا يبيحوا باسمه ولا يعلنوا علاقته بالحركة حتى لا يبطش به الولاة.

نتيجة لهذا النجاح الذى أحرزه المحكمة القعدة اتبع والي العراق، عبيد الله ابن زياد، سياسة قاسية تجاههم مما اضطرهم للجوء إلى السرية في نشر دعوتهم. وكانوا يقصدون إجتماعاتهم سراً للدعوة لمذهبهم والنظر فيما يعنيهم ويساعد على تحقيق أهدافهم. ولكن عبيد الله لم يغض الطرف عنهم، وأخضعهم لمراقبة شديدة، وكان يبث العيون والجواسيس لتعقبهم والقبض عليهم وزجهم في السجون. وكانت هذه الاجراءات الشديدة تقض مضاجعهم وتلقي الرعب في قلوبهم، ولذلك فقد كانوا يأتون مجالسهم متنكرين متشبهين بالنساء لدفع الريبة عنهم وهم في طريقهم إلى أماكن اجتماعاتهم، وكانوا أحياناً ينتحلون صفة التجار والباعة المتجولين حتى يصلوا مقصدهم. ولم يكتفى ابن زياد بمطاردتهم والتنكيل بهم بل لجأ إلى أسلوب آخر يرمي إلى زرع

الخلاف وزعزعة الثقة فيما بينهم، آملاً في القضاء عليهم من الداخل نتيجة الانقسام والنزاع، فقد كان يحبس الجماعة منهم ثم يأمرهم بقتل بعضهم بعضا، ومن قتل زميلاً له عفا عنه وأخرجه من السجن. وحاول بأساليب مماثلة أن يزرع الفتنة بين العرب والموالي من القعدة وخاصة أن دعوة أبي بلال قد استهوت عدداً من الموالي الذين كانوا يقطنون البصرة فتبعوه واعتنقوا مبادئه.

نتيجة للاضطهاد الذي تعرض له القعدة في البصرة آثر أبو بلال الشراء وترك المدينة مرتحلاً إلى مكان آخر آملاً في أن يأمن شر ابن زياد وينشر آراءه ومذهبه بحرية أكثر، وفي مناطقٍ لم تصل إليها دعوته من قبل. فسار معه نحو أربعين رجلاً من أتباعه حتى نزلوا آسك، وقد أعلن مرداس بأنه وأصحابه لن يخيفوا أحداً أو يجردوا سيفاً ولا يقاتلوا إلا من بدأهم بالعدوان. وعلى الرغم من ذلك فقد خشي ابن زياد نشاطه وانتشار دعوته فندب إليه الجيوش وأباده وأصحابه في عام ٦١هـ.

وبعد استشهاد أبي بلال بثلاثة أعوام (٦٤هـ) حدث إنقسام نهائي بين المحكمة فمال فريق منهم إلى التطرف بينما حبذ فريق آخر الاعتدال وانتهى هذا الخلاف إلى إنشقاق أبدي برز على أثره جماعة القعدة المعتدلة التي أثرت الهدوء والسير على نهج أبي بلال في

عدم استعراض الناس ومهاجمتهم إلا دفعا لعدوان. وفي بداية الربع الأخير من القرن الأول الهجري إنقسم القعدة إلى فرقتين: الصفرية والاباضية.

سميت الأباضية بهذا الاسم نسبة إلى عبد الله بن أباض الذى تعتبره المصادر غير الأباضية مؤسس المذهب الأباضي. أما العلماء الأباضيون فينسبون إلى عبد الله ابن أباض دوراً ثانوياً بالمقارنة مع جابر بن زيد الأزدى العماني الذى يعتبرونه إمام أهل الدعوة ومؤسس فقههم ومذهبهم. ويجمع المؤرخون والمفكرون الأباضيون على أن عبد الله بن أباض كان يصدر في كل أقواله وأفعاله عن جابر بن زيد.

ويبدو لي أن جابراً كان الامام الروحي وفقيه الاباضية ومفتيهم وكان بالفعل هو الشخص الذي بلور الفكر الأباضي بحيث أصبح متميزاً عن غيره من المذاهب، بينما كان ابن أباض المسؤول عن الدعوة والدعاة في شتى الاقطار ولذلك سمته المصادر رئيس القعدة في البصرة وغيرها من الامصار. وتاريخ الدعوة الاباضية يشير إلى اشتراك بعض الأشخاص البارزين والمجتهدين في المسؤولية إلى جانب الامام الأكبر لهم. وقد حدث مثل ذلك زمن أبي عبيدة مسلم بن أبي

كريمة التميمي الذي أناط المهام المالية والعسكرية والاشراف على سير الدعوة خارج البصرة إلى أبي مودود حاجب الطائي . ولما كان أبو عبيدة آنذاك معروفاً لدى الناس بأنه شيخ الأباضية وزعيمها في البصرة فإن المصادر لم تخلط بينه وبين حاجب الطائي كما فعلت مع جابر وابن أباض ، وذلك لأن جابراً كان قد أخفى معتقده واستعمل التقية الدينية فلم يخطر على بال أحد انه زعيم الأباضية ومؤسس مذهبها ، وخاصة أنه لم يكن معروفاً لدى البصريين إلا بكونه أحد التابعين المحدثين الثقات ومن أشهر فقهاء البصرة وعلمائها . والواقع أن جابراً كان ذا علاقة وثيقة بحركة المحكمة الأباضية منذ وقت مبكر وأصبح أحد مفكريها البارزين منذ بداية النصف الثاني للقرن الأول الهجرى وقبل مقتل أبي بلال مرداس عام ٦١هـ . وقد اكتسب ثقة أقرانه لعلمه ودينه فكانوا لا يصدرون في شيء الاّ بعد مشورته . ولكن ذلك قد خفي على مخالفيهم ولم يعرفوا له هذا الدور. ولذا نسبوا الفرقة إلى ابن أباض . وهو الشخص الذى قدموه ليناظر أعداءهم ويتكلم باسمهم علنا . وكان بذلك هو المعروف لدى عامة الناس فغلب أسمه على من اتفق معه في الرأى. كما أن مراسلاته مع الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان قد أقنعت كثيرا من معاصريه بأنه هو إمام الأباضية ومؤسسها . ومن حق السامع أن يسأل

لماذا لم يقم الامام الحقيقي، جابر ابن زيد، بالمراسلة مع الخليفة بدلاً من ابن أباض؟ والجواب يكمن في تصميم أتباع الفرقة بأن تبقى الحركة سرية بقدر الامكان وأن يبقى اسم مؤسسها ومنظم دعوتها مستوراً حتى لا يبطش به الأعداء والولاة. ويذلك يقوم الرقيشي «.. بلغنا أن أبا بلال مرداس بن حدير وغيره من أئمة المسلمين لم يكونوا يخرجون إلا بأمر إمامهم في دينهم جابر بن زيد العماني رحمه الله، ويحبون ستره عن الحرب، لئلا تموت دعوتهم، وليكون ردءاً لهم» ويقول قاسم بن سعيد الشماخي: «كان (ابن أباض) المجاهد علناً، المناضل علناً في سبيل تحقيق الحقائق، وتصحيح قضايا العقول، فيما أحدثه أهل المقالات والبدع من الزور والافتراء في شريعة ربنا، وكان شديداً في الله تعالى، وله مناضرات مع أهل التلطس والتفلسف. كان الحجة الدامغة التي يخنس أمامها كل ثرثار، وله كلام مع عبد الملك بن مروان يهضم نفس كل حائر جبار، تغلب على المسلمين، أصحابه، الذين يقولون بقوله الأباضية، وتسمى المذهب باسمه على هذا المعنى، وإنما كان الامام القائد، والوسيلة الراشد، أس المذهب وحامية، مرجع الفضل في تدوينه وتشييد مبانيه، إنما كان جابر بن زيد رضي الله عنه». أما المؤرخ الأباضي المعاصر محمد علي دبوز، فيرى أن الأمويين هم الذين أطلقوا عليهم

هذا الاسم، نسبة إلى عبد الله بن أباض لأن الأخير كان من علمائهم وشجعانهم والمناظر باسمهم. كما أن الأمويين لا يريدون نسبة هذه الفرقة إلى جابر حتى «لا يجذبوا إليهم الأنظار، ولا يبدون في هالة جابر المشرقة، فتميل إليهم النفوس، فنسبوهم إلى عبد الله بن أباض، وهو أقل منزلة من جابر في العلم وإن كان لا يقل عنه في التقوى والورع والصلاح». والدليل على صحة هذه الأقوال التي يوردها مؤرخو الأباضية، أن أتباع الفرقة لم يطلقوا على أنفسهم هذا الاسم في تلك المرحلة. وكانوا يصفون أنفسهم باسم «المسلمين أو جماعة المسلمين أو أهل الدعوة». وإذا تفحص الباحث المصادر الأباضية الأولى فإنه لا يجد فيها هذا الاسم، أي الأباضية، بل غالباً ما يجد لفظ جماعة المسلمين أو أهل الدعوة للتدليل على اتباع الفرقة. وإذا رجعنا إلى هذه المؤلفات التي كتبها مشايخ الأباضية مثل مدونة أبي غانم الخراساني، وكتاب الزكاة لأبي عبيدة والآثار الأخرى الباقية المنسوبة إلى جابر بن زيد فإننا لا نعثر فيها على كلمة أباضية. ولكن يبدو أنهم مع مرور الزمن وإصرار مخالفيهم على تسميتهم بهذا الاسم قد قبلوا به وخاصة أنهم لم يجدوا فيه ما يؤذيهم أو يسيء إلى سمعتهم. وقد ظهر لأول مرة في المؤلفات الأباضية المغربية في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو: لماذا قدم الأباضية ابن أباض ليجادل باسمهم علناً ويناظر مناوئيهم ويكشف عن بعض مبادئهم في الوقت الذي كانت فيه الحركة تمر فيما عرف بطور الكتمان أو السرية التامة؟ يبدو أن الأباضية في تلك المرحلة رأوا أنه لابد لهم من الافصاح عن بعض آرائهم ومعتقداتهم وخاصة ما يتعلق منها بوجهة نظرهم نحو متطرفي الخوارج حتى لا يتعرضوا للسخط من بقية المسلمين الذين اعتبروا الخوارج المتطرفين، مثل الأزارقة، مارقين تجب محاربتهم والقضاء عليهم. ولذا كان لابد للقعدة الأباضية ممن يفصح عن رأيهم حتى لا توجه إليهم تلك الاتهامات التي وسم بها متطرفو الخوارج. وكان ابن أباض هو المؤهل للقيام بهذه المهمة الدعائية لأنه، بالاضافة إلى قدرته في المناظرة والمجادلة، ينتمي إلى قبيلة تميم، إحدى أهم قبائل البصرة آنذاك ومن الصعب على الولاة أن يتعرضوا له بأذى خوفاً من إغضاب قبيلته. ومن هنا وصف خلفاء بني أمية بالظلم والفساد ومخالفة المبادىء الاسلامية في مراسلاته مع عبد الملك بن مروان. ولم يخاطب عبد الملك نفسه بلقب أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين بل خاطبه باسمه مجرداً من أى لقب. ورغم ذلك فإن عبد الملك لم يتخذ بحقه أية إجراءات. ولا تخبرنا المصادر عن توتر بين الطرفين وهذا دليل على أن

ابن أبـاض الذي ينتمي إلى قبيلة تميم كان آنذاك يتمتع بحماية قبيلته مما جعل اضطهاده أمراً صعباً وخاصة أنه لم يحمل السيف ولم يجرد السلاح ضد الحكام الأمويين.

أمـا عن نشـاط ابن أبـاض بعـد مراسـلاتـه مع عبـد الملك بن مروان فلا تذكـر المصادر معلومات موثوقة يمكن الاطمئنـان إليهـا. ويبدو أنه لاقى حتفه بعد ذلك في وقت لا تحدده المصادر المتوافرة وإن كان من المؤكد أنه توفي قبل عام ١٠٠هـ .

بعد إختفاء ابن أباض أقلع الأباضية عن المناقشة العلنيـة والجـدل الكـلامي مع مناوئيهم ومخالفيهم ولجأوا إلى السـريـة المطلقـة في تنظيم دعـوتهم وكـان لجابر دور تنظيمي كبـير في هذه المـرحلة التي تعـرف في التـاريـخ الأبـاضي بطـور الكتمان. فمن هو جابر بن زيد؟ وما هو دوره الحقيقي في نشأة الـدعـوة الاباضية؟ هو أبو الشعثاء جابـر بن زيـد الأزدى الجوفي البصري من قبيلة اليحمد الأزديـة في عمان. وقـد عرِّف بالجـوفي نسبـة إلى درب الجوف في البصرة حيث استقرّ مع أسرته فيها بعد.
ولد جابر في بلدة فرق بالقرب من مدينة نزوى في عُمان.

أمـا السنـة التي ولـد فيهـا فلا تعـرف على وجـه التحـديـد، وتعطي المصـادر تواريـخ مختلفة إلا أنها كلها

محصورة بين عامي ١٨ و٢٢هـ ولا تذكر المصادر المتوافرة أيضاً تاريخاً لقدومه إلى البصرة. ويبدو أنه جاء في وقت مبكر من حياته طلباً للعلم حيث كانت البصرة آنذاك أهم مركز فكرى في العالم الاسلامي. واستقر بين أقاربه من الأزد الذي سكنوا أحد أحياء البصرة.

وفي البصرة أخذ جابر يتزود بالعلم والمعرفة وخاصة ما يتعلق بعلوم القرآن والحديث وما يتصل بهما. وقد تتلمذ جابر على أيدى كثير من الصحابة والتابعين وأخذ عنهم الحديث والتفسير وعلوم اللغة والأدب. ويروى عن جابر أنه كان يقول: «أدركت سبعين بدرياً فحويت ماعندهم إلا البحر» أى عبد الله ابن عباس على أن الأخير لم يكن من أهل بدر. وفي القول دلالة على أن جابراً قد أخذ عن مجموعة من الصحابة الذين رافقوا رسول الله ﷺ ونقلوا عنه علمه وسنته الشريفة. ومن أهم العلماء الذين أخذ عنهم جابر: عبد الله ابن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وغيرهم. إلا أنه كان أكثر ملازمة لعبد الله بن عباس من غيره وكان من أنجب تلاميذه. وكان عبد الله ابن عباس يقول عنه: «لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً في كتاب الله». وفي رواية أخرى أنه كان يحيل سائليه إلى تلميذه جابر ويقول: «اسألوا جابر بن زيد، فلو سأله أهل المشرق والمغرب

لوسعهم علمه. وعندما كان يسأله أناس من أهل البصرة كان يبادرهم بقوله: «كيف تسألوني وفيكم جابر بن زيد (أو أبو الشعثاء). وقد وصفه عبد الله بن عمر بن الخطاب بأنه من فقهاء أهل البصرة البارزين. بينما قال عنه قتادة بن دعامة السدوسي بأنه عالم العرب وأعلم أهل الأرض.

لم يكتف جابر بن زيد لعلم من التقى بهم في البصرة بل كان يرتحل إلى أماكن أخرى طلباً لمزيد من العلم ولا يترك فرصة يتزود فيها بالعلم إلّا واغتنمها وكان يتردد على الحجاز ويلتقي بعائشة، أم المؤمنين، رضي الله عنها. ويأخذ عنها العلم. يسألها عن سنة الرسول الكريم ﷺ ويناقشها في كثير من المسائل مما يتعلق بحياة الرسول الخاصة آملاً منه في أن يجعل من تلك السيرة قدوة لأصحابه ولمن طلب فتواه مدللاً على رأيه بأمثلة من سيرة النبي العظيم محمد ﷺ.

مما مر يتبين لنا بوضوح أن جابر بن زيد قد اكتسب علماً واسعاً بعد إقامته في البصرة وأنه أصبح من أبرز التابعين الأوائل في علم الحديث والتفسير والعلوم الدينية بشكل عام. وقد أهلته معرفته العميقة لأن يصبح أبرز مفت في البصرة. ومما يدل على طول باعه في ميدان

الفتوى والاجتهاد أن عمرو بن دينار، وهو أحد العلماء اللامعين في البصرة آنذاك وأحد التابعين من رواة الحديث، كان يذكر جابراً بن زيد ويقول: «ما رأيت أحداً أعلم بالفتيا من جابر بن زيد» أما اياس بن معاوية، قاضي البصرة في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فكان يقول: «أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد من أهل عمان». أما الحسن البصرى فيثني على جابر وعلمه الغزير ويصفه بالفقيه العالم.

لم يكتف جابر بالرواية الشفوية عن أساتذته ومعاصريه، بل كان يسجّل الأحاديث التي سمعها من شيوخه كما سمح لتلاميذه بتدوين الأحاديث التي رووها عنه. وقد ألف كتاباً سماه **الديوان** ضمنه الأحاديث التي رواها وأودع في صفحاته أراءه وفتاويه في كثير من أمور العقيدة. ويقال أن ديوانه كان من الضخامة بحيث يعجز عن حمله البعير، ويقع في عشرة أجزاء كبيرة. وكانت نسخة منه موجودة في إحدى مكتبات بغداد الكبرى في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد. ويذكر المؤلف الأباضي، الوسياني، أن نسخة من الديوان قد بقيت، بعد موت جابر في حوزة خليفته أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ثم توارثها أئمة الأباضية في البصرة حتى انتهت إلى محمد بن محبوب بن الرحيل، ولد آخر الأئمة

الاباضية في البصرة. وفي عهده استنسخت المخطوطة في مكـة. ولكن المـؤلف لم يذكر اسم الناسخ ولا الهدف من نسخهـا. وربـما قام بهذا العمـل جماعة من أباضية شمال افريقية وخاصة أن هناك معلومات تشير إلى وجود نسخة من الـديـوان في شمال افـريقية في وقت مبكر. ويروى أن أحـد علماء الأبـاضيـة من جبـل نفـوسـة في ليبيا ويدعى النفّـاث فرج بن نصـر ــ وهـو مؤسس الفـرقـة النفـاثية الأبـاضيـة ــ استطـاع أن يحصـل على نسخة كاملة من ديـوان جابـر بن زيـد وأتى به إلى جبـل نفوسة. ولما كان نفّـاث عدواً للامـام الرستمي في تاهرت ولعامله في جبل نفـوسـه فقـد دمّـر المخطـوطـة حتى لايستطيـع منـاوئوه الحصول عليها أو حتى استنساخها.

ويبـدو أن جابـر بن زيـد قد اتبع أسلوباً خاصاً في البصـرة مما ساعـده على اكتسـاب المعـارف والاحـاطـة بالعلوم السـائـدة في عصـره وخاصة العلوم الدينية، فقد عاش حياة زهد وتقشف وانصرف عن لهو الدنيا وترفها، وكان يقول: «سألت ربي عن ثلاث فأعطانيهن، سألت عن زوجـة مؤمنـة، وراحلة صالحـة وزرقـاً كفـافـاً يومـاً بيوم». وكان يخاطب أصحابه ويقول: «ليس منكم رجل أغنى مني، ليس عندي درهم وليس عليّ دين». ويذكر ابن سيرين أن أبـا الشعثـاء جابـر كان مسلماً عند الدينار

والدرهم. أي أنه كان ورعاً تقياً لا يهتم بجمع المادة واكتنازها. والواقع أن المصادر السنية والأباضية تسهب في الحديث عن زهد جابر وانصرافه إلى الدرس والتحصيل حتى أصبح، بعلمه، مرجعاً لكل سائل في أمور الفتيا والفقه الاسلامي. وكان بعض الناس ممن يسكنون خارج البصرة يكتبون إليه مستفسرين عن مسائل ومشاكل فقهية فيجيبهم عليها. وتبعاً لذلك فقد وصفه معاصروه بأنه.. «بحر العلم وسراج الدين».

مما تقدم، يظهر لنا بوضوح أن جابراً قد اكتسب علماً غزيراً بعد هجرته إلى البصرة. وأصبح من الفقهاء البارزين الذين أسدوا خدمات جليلة للعقيدة والفكر الاسلاميين. ولا شكّ أنه وظف علمه ومواهبه في خدمة مبادئه التي آمن بها واقتنع بصحتها. ولكي نفهم دوره في نشأة الفرقة الأباضية وتطورها لابد لنا من التعّرف على بدء علاقته بجماعة القعدة ثم جهوده المتواصلة في سبيل إنجاح الدعوة الأباضية بعد أن أصبح رئيسها وزعيمها.

لسنا نعرف على وجه التحديد متى بدأت علاقة جابر بن زيد بالقعدة على الرغم من أن المعلومات التي توردها المصادر الأباضية تشير إلى قدم هذه العلاقة وإلى أن جابراً قد انضمّ إلى الحركة في وقت مبكر.

أما ما يورده بعض مؤرخي الأباضية المحدثين من أن جابر بن زيد كان زعيم الحركة بعد وفاة عبد الله بن وهب الراسبي مباشرة، فيصعب تصديقه، لأن جابراً آنذاك كان لايزال شاباً صغيراً يتراوح عمره بين السادسة عشرة والعشرين سنة فقط. ومن غير المحتمل أن يكون في هذا السن قد اكتسب العلم اللازم والخبرة الضرورية ليقدمه أصحابه زعيماً ومرشداً لهم. أضف إلى ذلك أننا لا نملك أى دليل على أن جابر بن زيد كان ذا علاقة مباشرة مع عبد الله بن وهب الراسبي أو أنه اشترك في معركة النهروان التي استشهد فيها الراسبي. ولا تشير المصادر الى أى نشاط لجابر بن زيد بالاباضية قد بدأ بعد النهروان وبعد لجوء مرداس ابن ادية التميمي وأصحابه للبصرة في أواخر العقد الثالث من القرن الأول الهجرى. ويستنتج من المعلومات الواردة في المصادر الأباضية المتوافرة أن جابر بن زيد قد انضمّ إلى القعدة إبّان ولاية عبيد الله بن زياد للعراق (٥٦ ــ٦٤هـ)، أي في بداية النصف الثاني من القرن.

بالاضافة إلى ماسبق فإن الروايات الأباضية تشير إلى علاقات متينة وودية بين جابر بن زيد وأبي بلال مرداس بن أدية التميمي، شيخ القعدة في البصرة بعد معركة النهروان. وكان الرجلان يخرجان إلى مكة سوياً ويلتقيان بابن عباس وعائشة أم المؤمنين. ويذكر أبو

سفيـان محبـوب بن الـرحيـل، أن جابر بن زيد وأبا بلال مرداس دخـلا مرة على عائشـة رضي الله عنهـا فعـاتباها على ما كان منها يوم الجمل. قال: فاستغفرت الله تعالى وتـابت مما كانت قد دخلت فيه. ويبدو أن العلاقات بين الرجلين كانت تزداد وتتوثق بسرعة. وأخذ مرداس يدرك مدى علم جابـر وذكـائـه فكـان يتردد عليـه آنـاء الليـل وأطراف النهار ليغرف من معرفته الواسعة وعلمه الغزير. وذكـر مؤلف كتاب بيان الشرع عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي أنه قال: «لقد كان أبو بلال رحمه الله يبكي في جوف الليـل حتى ما يطيق أن يقـوم. ولقد كان من تشـوقـه إلى إخـوانـه أنـه يخرج من عبد أبي الشعثاء جابر بن زيد بعد العتمة، ثم يأتيه قبل الصبح فيصلي معه.

مما مر يتبين لنا أن جابر بن زيد كان قد انضّم إلى القعـدة منـذ أيـام عبيـد الله بن زيـاد ولكن البـاحث لا يستطيع أن يقرر سنة بعينها لتاريخ ذلك الانضمام. ويبدو من الـروايـات أن نجم جابـر أخـذ يتألق في سماء تلك الحـركـة قبل عام ٦١هـ وهو العام الذى قتل فيه أبو بلال مرداس بن أدية التميمي، حتى أن بعض الروايات تجزم على أن أبـا بلال لم يقم بعمله إلا بعـد مشـورة من جابر ابن زيـد وقبـول منـه. وإذا صحت هذه الـروايـات فإن

القعـدة قد اتفقـوا على أن يتـولى جابـر بن زيـد أمرهـم وتنظيم دعـوتهم منـذ المـراحـل الأولى لتطـور الـدعوة في البصـرة إيـماناً منهم بذكـائـه واعتماداً منهم على اطلاعه الـواسـع وتحصيله العميق في العلوم الـدينيـة وخاصة ما يتعلق بالتفسـير وعلم الحديث. ولعل ذلك كان السبب في اعـتراف أبي بلال له بالـزعـامـة قبل وفاته حتى أنه لم يصـدر في عمله إلا بأمـر جابـر ومشورته. وكان لجابر بن زيـد دور كبـير في تنظيم الحـركـة وتطـورها وقد ارتكزت سياسته إبان زعامته للفرقة الأباضية على قواعد أساسية يمكن إجمالها بما يلي:

١ ــ أن جابر لم يشأ الانسحاب من المجتمع الاسلامي الذي يعيش فيه مع بقية أتباع حركته. ولذا فإنهم لم يعـزلـوا أنفسهم عن النـاس ولم يدعوا للخروج والهجـرة كما فعـل الأزارقـة وغـيرهم من متطـرفي الخوارج. وكان جابر ينشر آراءه ويبث أفكاره بين النـاس من خلال أحاديثه الدينية وفتاويه وأجوبته على المستفسـرين عن بعض الأمـور الـدينية من داخـل البصرة وخارجها. وكان يتفحص تلاميذه فمن وجـد فيه استعداداً قوياً لآرائه وحماساً لمبادئه دعـاه إلى ذهبـه. ولكن ذلـك يحدث بسرية تامة مستعمـلا في سبيـل الـوصـول إلى هدفـه التقيـة الدينية. وإمعاناً في كتمان أمر دعوته فقد كان يأمر

أتباعه بقتل كل من يكشف أسرار الجماعة أو يبوح بأسمائهم فإن حدث أن ترك أحد أتباع الفرقة مذهبه وتخلى عن مبادئه دون أن يطعن في أصحابه القدامى أو يفشي أسرارهم فكان الأباضية يتبرأون منه ولكن دون أن يتعرضوا له بأذى معتبرينه واحداً من المخالفين الموحدين الذين لا تحل دماؤهم إلا إذا بدأوهم بالعدوان. ولكن إذا خرج من مذهب المسلمين (الأباضية) أحد وعاب عليهم وطعن في معتقدهم وأفشى أسرارهم فقد وجب قتله وأحل دمه. وقد اعتبرت سياسة جابر في هذا الشأن قدوة لمن جاء من الأئمة، واعتبروا الاغتيال لمن يسيء إليهم أحد دعامات نشاطهم «وأحلوا الدماء بالظلم والابتداء به».

٢ ـ تجنب جابر أي احتكاك معاد مع السلطة. ولم يؤثر عنه أنه تعرّض لأذى قبل تولي الحجاج للسلطة في العراق على الرغم من أن بعض أصحابه قد لقي عنتاً كبيراً على يد الولاة منذ أيام ابن زياد. وتشير المصادر الأباضية إلى أن العلاقة بين جابر بن زيد والحجاج كانت في البداية ودية. وكان جابر يزور الحجاج ويتردد عليه حتى بعد أن

نقـل الحجـاج مقـره إلى مدينـة واسـط. وكـان ليـزيـد بن أبـي مسلم، كاتب الحجـاج، دور ملموس في هذه العلاقة لأنه كان صديقاً حميماً لجابر.
وقـد أراد الحجـاج أن يوليه القضاء فرفض متذرّعاً بعدم مقدرته على حمل أعباء هذا المنصب وقال: «اني أضعف من ذلـك، قال (الحجـاج) ومـا بلغ ضعفـك؟ قال: يقـع بين المـرأة وخـادمهـا شر فما أحـسـن أن أصـلح بيـنهـما. قال ان هذا لهو الضعف». وفي هذه الـرواية دلالة على أن جابراً كان يريد اخفاء مقدرته وابداء ضعفه للوالي حتى يبعد الشبهات عنه، وحتى لا يخطر ببال الوالي أن رجـلاً بلغ هذه الـدرجـة من الضعف يمكنـه أن يقوم بتأسيس حركة سرية مناوئة للحكم.

٣ ــ لما كان جابـر بن زيـد ينتمي إلى قبيلة الأزد، فقد وجّه قسماً كبيراً من جهوده نحو إقناع بعض أفراد هذه القبيلة للانضـمام إلى حركته. وقد نجح إلى حد بعيـد في هذا الشأن وتبعـه عدد كبير من الأزد وعلى رأسهم بعض أفراد الأسرة المهلبية ــ زعيمة أزد العـراق ــ وأصبـح بعضهـم من دعـاة الفـرقة وحماتها البارزين. ولم يقتصر ذلك على الرجال بل

تعـداه أيضـاً إلى النساء. وتورد المصادر الأباضية عدداً من النسـاء المهلبيـات اللاتي انضممن إلى جماعـة المسلمـين (الأبـاضيـة) وبـذلن جهوداً في سبيـل نصـرتهـا واعطين بسخاء من أموالهن لبيت مال الـدعـوة ولمسـاعـدة المحتـاجين من أتباعها. ليس هذا فحسب بل أن المصادر تشير إلى أعداد كبـيرة من عمان، موطـن الأزد الأصـلي، وحضـرمـوت واليمن انضمت إلى الأبـاضية. ولم تعـد الحـركـة مقصـورة في معظم أفـرادهـا على العنصـر القبـلي التميمي كما حدث بعـد معـركـة النهـروان. ولاعجب أن نجـد أول إمـامه أسسها الأباضية كانت في حضرموت واليمن وعمان.

ونتيجة للجهود التي بذلها جابر بين أقاربه من الأزد بوجـه خاص وعـرب الجنـوب عامة فقد أصبحت الحركة تضم عناصر من قبائل عربية مختلفة كما انضم إليها كثير من المـوالي. ولم يمت جابـر بن زيد إلا وقد غدت الدعوة الأبـاضيـة عبـارة عن حركـة اسـلاميـة شاملة اجتـذبت عنـاصـر مختلفـة من قبـائـل وأجنـاس متعددة. وأخذت القنـاعـات المـذهبية لدى كثير من أتباع الدعوة تحل محل الولاءات القبلية والعرقية. ولم تقتصر دعوة جابر على من كان موجوداً في البصرة بل تعدتها إلى الأمصار الاسلامية

الأخـرى حيث كان يبعث بالدعاة لمختلف المناطق وكان عمله هذا إرهـاصـاً لما تم في عهـد خلفـة أبي عبيدة من تدريـب للدعـاة الـذيـن عرفـوا باسم حملة العلم إلى الأمصار. وكان جابر على صلة وثيقة مع أتباع دعوته في الـولايـات المختلفـة ومن بينهم أناس من الأزد والمهالبه. وتشـير المصـادر إلى مراسـلات متبـادلـة بينـه وبين عبد الملك بن المهلب في خراسـان. وكـان جابر يطلب منه أن يكتب له في أمـر الـدعـوة ويسألـه أن يرسـل خطاباته في سريـة تامـة مع أشخاص موثوقين. والواقع أن جابر كان يكـرر الطلب في وجـوب السـريـة في جميـع مراسلاته مع أعـوانـه وأتبـاعـه، ويطلب أحيـانـاً تمزيق رسائله إليهم وحـرقها حتى لا تصل إلى أيدى أعدائهم فتؤدى بالتالي إلى كشف تنظيمهم وإجهـاض حركتهم. وقـد استطاع جابر بهذه السياسة أن يتجنب تنكيل الولاة به وباصحابه لفـترة طويلة واستطاع أيضاً أن يكسب عدداً من الأتباع ممن تولـوا فيـما بعـد مركـز المسـؤ وليـة (بالطبع دون علم السلطات بمعتقدهم وكانوا يستعينون بآراء إمامهم جابر في تسيير الادارة والاعمال في المناطق الخاضعة لنفوذهم. ومن بين هؤلاء الأشخـاص النعـمان بن مسلمـة الـذى أرسـل إلى جابر يسأل عن كيفية جمع الجزية في منطقته. ولا تذكر المصادر المتوافرة أين كان النعمان والياً (أوعاملا) ولكن ورود كلمـة دهقـان في الـرسائل المتبادلة بينه وبين

الامـام جابـر تدل على أنـه كان واليـاً في المناطق الشرقية وربمـا في خرســــان. ومن الشخصيـات الأخرى التي كانت على صلة وثيقة بجابر بن زيد، يزيد بن يسار الـذى كان يقطن عمان ويـدين بالمـذهب الاباضي، وقد عين عامـلاً في إحـدى منـاطق عمان فأرسـل إلى جابـر يستشيره في ذلك ويطلب نصائحه وإرشاداته.

وتبعاً لذلك فقد وجد كثير ون خارج البصرة كانوا على علاقات حميمة مع جابر يدينون بمذهبه ويصدرون عن أمـره، وكـانـوا عيـونـاً له وممثلين في المنـاطق التي يسكنـونهـا. ونظـراً للدقة في التنظيم والحذر الشديد فلم يستطيع الولاه القبض على هؤلاء الدعاه والأشخاص. وكان وجود بعضهم في مركز المسؤ ولية دليلاً واضحاً على عدم معرفة الولاة بمعتقداتهم، وكان أيضاً دليلاً على أن جابـراً لم يمانـع في أن يستلم بعض أتباعه عدداً من المراكز والمهـام الـرسمية في جهاز الدولة ـــ التي يعمل ضدها في النهـايـة ـــ حيث كان يرى أن هؤلاء يسهمـون في توفـير منـاخ منـاسب لنشـر دعـوتـه في تلك الأمصار والولايات ويشكلون دعـامـة لها. ويبدو أن هذه العلاقات الواسعة والاتصـالات الـدائمـة مع أتبـاع الحـركـة في البصـرة وخـارجهـا قد وصلت إلى أسماع الحجاج، فأخذ يرتاب من جابر بن زيد وجعله تحت مراقبة دائمة ولكن علاقات

جابر مع كاتب الحجاج، وعدم وجود قناعة واضحة لدى الحجـاج بنشـاط جابـر أدى إلى عدم اتخـاذ إجـراءات شديـدة ضد الأمـام جابـر في البـداية. ولكن التطورات السياسية التي حدثت في بلاد المشرق في العقد الثامن من القـرن الأول الهجـري قد أدت إلى تغيـير جذرى في موقف الحجـاج من جابـر بن زيـد وأتبـاعه، فقد ثار أزد عمان بزعـامـة سعيـد وسليـمان أولاد عبـاد بن الجلندى، وأرسـل الحجـاج حملات عدة لقمع الثورة وباءت جميعها بالفشـل. وفي تلك الأثنـاء قامت ثورة ابن الأشعث عام ٨١هـ/ ٧٠٠م فأجـل الحجـاج معـالجـة الموقف في عمان ليتفـرغ لقتال ابن الأشعث. وبعد القضاء على ثورة بن الأشعث وجـه الحجـاج جيشـاً كبـيراً إلى عمان بقيـادة القـاسم المـزني ولكن الأزد بقيـادة الأخـوين، سعيـد وسليـمان، تمكنـوا من دحـر هذه الحملة وقتـل قائـدها. وعنـدمـا وصلت أنبـاء فشل الحملة إلى الحجاج غضب كثـيرا، وقـرر الانتقام من الأزد ليس في عمان فحسب بل في العراق أيضا. فوضع زعماء الأزد في العراق ومن بينهم جابـر بن زيـد، تحت مراقبـة شديـدة، وحذّرهم من أى اتصـال مع إخـوانهم في عمان، وكتب إلى عبد الملك بن مروان في الشام يخبره بتضييقه على أزد العراق وأنه أقعد وجوه الأزد الذين كانوا في البصرة عن النصرة لسليمان بن عبـاد. ثم بعث جيشـاً بقيادة مجاعة المزني، أخي القاسم

على رأس أربعين ألفاً من النزاريين لاخماد ثورة الأزد.
وقد سلك نصف هذا الجيش طريق البحر بينما سلك النصف الآخر طريق البر. وقد تمكن سليمان بن الجلندى من هزيمة الجيش البرى الذى يبدو أنه وصل مبكراً ولم ينتظر وصول القوة البحرية لتشترك الفرقتان في مهاجمة الثوار في آن واحد وطبقاً لخطة عسكرية واحدة.
وأثناء ذلك وصل الجيش البحرى وعلى رأسه مجاعه نفسه، وتمكن من هزيمة سعيد بن الجلندى الذى بقي في جزء صغير من الأزد يراقب السواحل بينما كان معظم الجيش العماني الأزدى يرافق أخاه سليمان الذى هزم الجيش البرى الذى أرسله الحجاج. اضطر سعيد بن الجلندى للانسحاب إلى الداخل والالتجاء إلى الجبال، ولما علم أخوه سليمان سار إليه محاولاً فك الحصار عنه ومحاربة مجاعة ومن معه من الجند. وقبل أن يشتبك مع مجاعة أحرق السفن التي جاءت بهم من العراق. ثم سار إلى مجاعة وتمكن من هزيته وارتد مجاعة هارباً والتجأ إلى جلفار، وكتب إلى الحجاج يستمده فأرسل له خمسة الآف جندى من أهل الشام بقيادة عبد الرحمن بن سليمان. وتمكن مجاعة بمساعدة القوة الشامية من هزيمة الأخوين سعيد وسليمان ومن معهما من الأزد. ودخل مجاعة ونكّل بالأزد وأوقع فيهم الذل والهوان، مما كان له أبعد الأثر في موقف أزد العراق، حلفاء الأباضية الذين

يتـزعمهم جابر الأزدي ، تجاه الحجاج والسلطة الأموية . فغضبـوا لما حل بابنـاء قبيلتهم في عمان واعتبر وا الحجاج مسـؤ ولاً عما حدث فسخطـوا عليـه وتمنوا زوال حكمه . وفي الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الحوادث التي أدت إلى توتر العلاقات بين الأزد والحجاج قام الأخير باشعال النـار في الهشيم فتنكـر لآل المهلب، زعـماء أزد العـراق وخـراسـان ، وطلق الحجـاج زوجتـه التي كانت اختـاً ليـزيـد بن المهلب والي خرسـان آنـذاك . وأخـذ يكيد له ويحـرض عبـد الملك بن مروان ضده ، ونجـح في إقنـاعه بعـزل يزيـد من ولايـة خراسـان وبـالسماح له في معاقبته وتعـذيبـه . فزّج الحجـاج بيـزيـد وبعض أفراد أسرته في السـجن وأسـاء إليهم مما زاد في إغضـاب أزد العـراق والبصـرة . وكـان لموقف الحجـاج هذا أثـره على الـدعوة الأبـاضيـة التي يتـزعمهـا الامـام جابـر بن زيـد الأزدي البصـرى . فقـد استغّـل جابـر فرصة الكراهية بين الأزد والحجـاج لاقنـاع كثير من الأزد بالانضمام إلى أهـل الـدعـوة . وبـالفعـل تبعـه قسم كبير منهم وعلى رأسهم أفـراد من آل المهلب ، رجـالاً ونسـاء ، منهم عاتكـة بنت المهلب ، أخت يزيـد ، التي كانت من أشـد الناس حماساً للمـذهب ولم تبخـل بمالهـا لمسـاعـدة المحتاجين من أهل دعـوتهـا . وكـان لهذه التطـورات أثـرها الكبير في موقف الحجـاج من جابـر وأتبـاعه . وقد حبس جابراً مع بعض

أصحابه البارزين مثل ضمام بن السائب وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي وصحار العبدى وغيرهم . ولم يلبث الحجاج أن أطلق سراح جابر ونفاه مع رجل من مشايخ الدعوة يدعى هبيرة وهو جد أبي سفيان محبوب بن الرحيل المؤرخ الأباضي وآخر الأئمة الأباضيين في البصرة . ومن المحتمل أن الافراج عن جابر كان بشفاعة من صديقه الحميم ، يزيد ابن أبي مسلم ، كاتب الحجاج . ولاشك أن نفي جابر إلى عمان كان ذا نتيجتين : الأولى أنه حرم أتباع الحركة في البصرة من إمامهم وزعيمهم فخلدوا إلى الدعة والهدوء . بينما بقي زعماؤهم ومشايخهم في سجن الحجاج حتى مات الأخير عام ٩٥هـ . والثانية أن الفرصة كانت مؤاتية لأن يقوم جابر بالدعوة إلى مذهبه في موطنه الأصلي ، عمان ، أى بين أهله وعشيرته الأقربين الذين يعرف عاداتهم وتقاليدهم وكيفية التعامل معهم ، مستغلاً في ذلك كرههم للحجاج وحقدهم عليه لما حل بهم خلال ثورة أولاد الجلندى التي أخمدها الحجاج . ولا يراودنا شك في أن وجود جابر مع بعض رفاقه في عمان قد أفاد الدعوة الأباضية وساعد على سرعة انتشارها في هذا القطر . وكانت جهوده مقدمة لنشاط حملة العلم الذين بعث بهم ، فيما بعد ، خليفته أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمه التميمي . ولا تشير الروايات الى تاريخ محدد لنفي جابر

إلى عمان كما أنها لا تذكر المدة التي قضاها في منفاه، ولكنها تجمع على أنه عاد إلى البصرة ومات فيها. وتختلف المصادر حول تاريخ وفاته، إذ يذكر بعض الرواه أنه توفي في نفس الأسبوع الذي توفي فيه أنس ابن مالك. وقد توفي الأخير في عام ٩٣هـ/٧١١م. ويرى البعض الأخر أنه توفي عام ١٠٣هـ/٧٢١م. أما الهيثم بن عدى فيضع تاريخ وفاته عام ١٠٤هـ/٧٢٢م. بينما يضعه الشماخي عام ٩٦هـ/٧١٤م. ويبدو أن الرأى الأول هو الأصح لأنه جاء على ألسنة رواة الحديث الذين يهتمون إلى حد كبير بحياة كل محدث وتاريخ وفاته. وكان جابر أحد هؤلاء المحدثين. أضف إلى ذلك فإن المصادر تشير إلى أن جابراً استدعى الحسن البصرى إليه وهو على فراش الموت وكان الحسن آنذاك مستخفياً من الحجاج الذى مات عام ٩٥هـ. ومعنى هذا أن جابراً توفي قبل هذا التاريخ. والأرجح أن تاريخ وفاته عام ٩٣هـ/٧١١م كما أشرنا قبل قليل. وخلفه في زعامة الدعوة أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي.

تبوأ أبو عبيدة زعامة أهل الدعوة بعد موت الحجاج عام ٩٥هـ وخروجه من السجن، واتفق ذلك مع بداية حكم الخليفة سليمان بن عبد الملك

(٩٦هـ/٧١٥م ــ ٩٩هـ/٧١٧م). وكـان الخليفة على علاقة وثيقة مع المهالبة، زعماء الأزد، الذين انضموا إلى الحـركـة الأبـاضيـة بأعداد وفيرة إبّان إمامة جابر بن زيد الأزدي. ومن المحتمـل أن الأبـاضية لم يلاقوا عنتاً خلال فترة سليـمان بن عبـد الملك الـذي عين زعيم الأزد، يزيـد بن المهلب والياً على العـراق وخراسان. ولا تذكر المصادر الأباضية المتوافره أية علاقات عدائية بين الخلافة وأتباع الأباضية خلال هذه الفترة. ولعل السبب في ذلك يعود إلى حماية يزيد بن المهلب لهم نتيجة العلاقات التي تربـط الأزد وآل المهلب بهذه الحـركة، وخاصة إذا تذكرنا أن كثيراً من زعـماء المهـالبة ومن بينهم عاتكة أخت يزيد وأخيه عبد الملك كانوا من بين أتباع تلك الدعوة.

وعندما توفي سليمان بن عبد الملك وارتقى عمر بن عبـد الـعـزيـز عرش الخـلافـة (٩٩هـ/٧١٧ ــ ١٠١هـ/٧٢٠م)، سجـن الأخـير يزيـد بن المـهـلب لاتهـامه إياه بعدم تسليم خمس الغنائم التي حصل عليها أثناء حملته في جرجان وطبرستان زمن الخليفة سليمان بن عبـد المـلك. وقـد بقـي يزيـد في السجن طيلة حكم عمـر بن عبـد العـزيـز كما قام والي العراق بسجن أخوته وبعض أقـاربـه في البصـرة. ولكن هذه الحـادثة لم تؤدي إلى توتر في العلاقات بين أتباع الدعوة الأباضية والخليفة

عمر بن عبد العزيز. والحقيقة أن هذا الخليفة حاول أن يحل مشاكله مع أحزاب المعارضة ومن بينهم الاباضية بالطرق السليمة مفضلاً الحوار والمناقشة على النزاع والحروب ويبدو أن أبا عبيدة ومشايخ الأباضية في البصرة كانوا يأملون خيراً من عمر بن عبد العزيز وحاولوا التوصل إلى تفاهم معه حول قاعدة مشتركة بين الطرفين، فأرسلوا إليه وفداً على رأسه جعفر بن السماك أحد أبرز مشايخ الأباضية في البصرة آنذاك محاولين استمالته إلى جانبهم وإقناعه بصحة معتقدهم. وعلى الرغم من عدم وصولهم إلى نتيجة حاسمة معه في هذا الشأن إلا أن الوفد قد رجع راضياً عن سياسته وسلوكه. وتذكر بعض المصادر الأباضية أن الوفد استطاع أن يستميل ابن الخليفة عبد الملك، واعتنق المذهب الأباضي.

أثناء هذه الفترة من العلاقات السلمية، وأحياناً الودية، بين الأباضية والسلطة الحاكمة والتي امتدت خلال حكم الخليفتين سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، استغلّ أبو عبيدة ومشايخ الدعوة في البصرة هذه الفرصة لالتقاط أنفاسهم وتنظيم حركتهم على أسس متينة من أجل الوصول إلى هدفهم الأسمى وهو تأسيس إمامة الظهور وانتخاب خليفة للمسلمين من بين

أتباع الدعوة. وقام أبو عبيدة بتطوير تنظيمات المجالس السرية وأعمالها التي كانت تقام في البصرة وتضم مشايخ الدعوة وأتباعها حيث يتداولون فيها خططهم ويتعلمون فيها مبادىء عقيدتهم وما يمت إلى دعوتهم بصلة سواء في النواحي الدينية أو الدنيوية. والحقيقة أن هذه المجالس السرية كانت موجودة منذ زمن مرداس ابن أدية التميمي الذي تزعم حركة القعدة بعد النهروان، أي في أيام زياد بن أبيه وابنه عبيد الله. وتذكر الروايات أن عروة بن أدية، أخا مرداس، قد قبض عليه وهو مختبىء في سرداب سرى تحت الأرض حيث كان يتعبد مع أصحابه. ويذكر المؤرخ الأباضي، أبو سفيان، أمثلة أخرى تدل على وجود مثل هذه المجالس السرية في زمن مبكّر من عمر الدعوة. منها ما يقوله: «حدثني يسار وهو من خيار من أدركت عن والدته، وهي بنت ثمانين سنة. قال: أدركت أخوين من بني راسب يقال لأحدهما تبرح والآخر مازن ابنا كنان. وكانا من خيار من مضى من أهل هذه الدعوة. وكانا نظيري أبي بلال وأخيه عروة رحمهم الله، وكانا في زمانهما. فأما تبرح فكان عابداً مصلياً لا يفتر من العبادة حتى دبرت ركبتاه ويداه ورجلاه وجبهته كدبر البعير. وكان قد اتخذ سرباً في الأرض يعبد الله فيه مع أصحابه.

وعلى الرغم من وجود هذه المجالس السرية منذ الأيام الأولى لقيام حركة القعدة فإن الفضل يعود للامام أبي عبيدة في توضيح معالم هذه المجالس وتصنيف وظائفها وترتيب طبقاتها. ويمكن أن نميز بين ثلاثة أنواع من المجالس السرية كانت موجودة زمن أبي عبيدة التميمي.

النوع الأول: المجالس العامة وهي التي لم تكن مقصورة على جماعة معينة بل أن دخولها مباح لأى شخص من أهل الدعوة. وكان الأعضاء يرتادون هذه المجالس التي تعقد سراً في بيت أحد المشايخ وفي سراديب أرضية خاصة أعدت لهذا الغرض. وفي بعض الأحيان كانوا يعقدون هذه المجالس في بيوت النساء العجائز أو في بيوت الكرائين تجنباً للشبهات وإمعاناً في الحيطة والحذر. ولم يكن لهذه المجالس العامة برنامج معين أو خطة واحدة. بل كان الأعضاء يجتمعون في المجلس ويتلقون دروساً في انعقيدة وإرشادات من كبار المشايخ الذين كانوا يقومون بالقاء الخطب الواحد تلو الآخر حول موضوع معين أو مواضيع مختلفة. وتشبه خطبهم ما هو معروف عن خطب صلاة الجمعة في المساجد ولكنها من جهة أخرى تختلف عنها في أن المجتمعين قد يتلقون أوامر يجب التقيد بها. ولم تقتصر على الخطب الوعظية والدروس

الدينية كما هو الحال في خطب الجمعة أو الأعياد الدينية. وكـان المتحـدثـون يتكلمـون بصـوت منخفض حتى لا يسمعهم الجيران أو المارة.

وكـانـوا يعينـون أشخـاصـاً منهم لمراقبـة الأحيـاء والطـرق المـؤديـة إلى مكان الاجتماع. حتى لاتداهمهم الشرطة على غفلة أو يعلم باجتماعهم أحد من المخالفين المنـاوئين للحركة. وبينما كانوا مجتمعين ذات مرة جاءتهم العيـون تخبرهم بأن الشـرطة في طريقها إلى الحي الذى اجتمعـوا فيـه، ففضـوا الاجتـماع وتفرقوا. وكانوا آنذاك مجتمعـين في بيت متـواضـع تملكـه امـرأة مسنـة. يقـول أبو سفيان: «وما بلغنا أنه ظفر بهم في مجلس قط إلا أنهم كانـوا ذات مرة أتاهم الخبر بأن الخيل تريدهم. فخرجوا مسـرعـين، وتـركون نعالهم على باب البيت الذى كانوا فيـه. فجـاء الشـرط فنظـروا إلى النعال، فقالوا للعجوز صاحبـة البيت: ما هذه النعـال؟ فقـالت: مكـاتب لنـا يسأل النـاس فيعطى النعـال وغيرها، قالوا بالله ما ذلك كما ذكـرتـه، فإن هذا موضع ريبة. قال: فقال بعضهم: قد ذكـرت العجـوز ما ذكـرت، فلا تعـرضـوهـا للبلاء، فلعلها أن تكون صادقة، قال: فعافاها الله منهم. وعلى أى حال فإن الأبـاضيـة لم يتركوا وسيلة لاخفاء تنظيمهم إلا واتبعـوهـا وكانوا يتخذون كل الاجراءات الممكنة لمنع

تسرب أية معلومات عن مجالسهم أو أماكن انعقادها. كما كانوا يذهبون لحضور هذه المجالس متنكرين على هيئة النساء أو الباعة المتجولين. يقول أبو سفيان: «كانوا يأتون المجالس في هيئة النساء في النهار، وغير ذلك يتشبهون بالنساء. . . وإن كان أحدهم ليحمل على ظهره جرة بماء، أو يحمل حملة متاع كأنه بيّاع حتى يدخل المجلس. ليس هذا فحسب بل أن مشايخ الأباضية كانوا يحذرون أتباعهم من العيون والجواسيس ويوصونهم بطرد أى شخص يشكون في أمره. ويؤثر عن أبي مودود حاجب الطائي أنه كان يخاطب أتباعه ويقول: «إذا كان أحد يعيب عليه المسلمون (الأباضية) في خلافهم في الدين وأراد أن يشغب عليهم ويفتق بينهم فاهجروه ولا تحضروه مجالسكم وأعلموا الناس به ليكونوا منه على حذر. ونتيجة لهذه الوسائل والاجراءات الحذرة التي اتبعها الأباضية في البصرة لم يؤثر عنهم «أنهم ظفر بهم في مجلس قط».

وكان مشايخ الأباضية البارزين يشرفون على هذه المجالس العامة. ولذلك فقد سمي كل مجلس باسم الشيخ المشرف عليه مثل مجلس عبد الملك الطويل، ومجلس أبي سفيان قنبر ومجلس أبي الحر علي بن الحصين ومجلس أبي مودود حاجب الطائى وغيرها.

النـوع الثـاني : مجالس المشايخ ويحضرها زعماء الأباضية فقـط. وفي هذه المجـالس تقـرر السياسة التي يجب على أهـل الـدعـوة اتبـاعهـا. وكان مجلس المشايخ عبارة عن مجلس تخطيط وتنظيم لحركة ثورية سرية. ولا يجوز لأحد غير الامـام وكبـار المشـايخ حضور هذه المجالس. وتورد المصادر الأباضية أمثلة كثيرة منع فيها بعض أتباع الدعوة من الـدخـول إلى هذه المجالس منها ما يذكره أبو سفيان من أن شعيب بن عمـر، وهـو من أفـاضـل شبـاب أهل الـدعـوة، قد حاول دخـول أحـد مجالس المشـايخ وكان منعقداً في الليل في بيت زوج أخته حاجب الطائي. ولما علم الأخـير به رفض السـماح له وطلب منـه العـودة إلى بيته الذي كان يبعد أكثر من ثلاثة أميال.

النـوع الثـالث : هوما يمكن أن نسميـه باسم مجالس أو مدارس حملة الـعـلم، حيـث كان الـدعـاة من مختلف الأمصـار يتلقـون العلم وأصول الدعوة وتعاليمها مباشرة عن الامـام أبي عبيـدة مسلم بن أبي كريمـة التميمي الذي أقام مدرسة لهذه الغاية في سرداب أرضي لا يعرفه إلا الـدعـاة (حملة العلم) وشيـوخ الأبـاضيـة البـارزين المـوثـوقـين. وكان أبو عبيدة يتظاهر بصنع القفاف لذلك دعي بالقفّـاف. وبينـما كان الامـام يلقي دروسـه على تلاميـذه كان هنـاك حارس يجلس عنـد البـاب الخارجي

للسرداب فإذا مرّ أحد حرك الحارس سلسلة حديدية فيتوقف أبو عبيدة عن إلقاء دروسه ومحاضراته، ويشتغل وتلاميذه بصنع القفاف. وإذا أمن الحارس وأيقن عدم وجود خطر حرّك السلسلة مرة أخرى فيعود أبو عبيدة وتلاميذه للدرس والتحصيل. ومن هذه المدرسة تخرّج دعاة الأباضية في الأمصار الذين عرفوا باسم حملة العلم.

كان حملة العلم يختارون عادة من بين أهل الولايات التي يرسلون إليها، أو من المناطق القريبة منها لمعرفتهم بأحوال الناس وعاداتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم ومقدار تطورهم الفكري والحضاري ودرجة ولائهم للسلطة الحاكمة، وبالتالي يسهل عليهم مخاطبة الناس واختيار الظروف الملائمة والأماكن المناسبة لاقامة مراكز الدعوة ونشر أفكارهم ومعتقداتهم في تلك البلاد. وإذا تفحص الباحث المصادر الأباضية المتوافرة فإنه يجد أن معظم حملة العلم كانوا من بين السكان الأصليين للبلاد التي يبشرّون فيها، على أن وجود دعاة من أماكن أخرى كان وارداً ولكن بصورة محدودة جدا، وطبقاً لمقتضيات الظروف، كما حدث عندما رافق أبو الخطاب المعافري وهو عربي يمني حملة العلم المغاربة الذين جاؤا إلى البصرة في نحو عام ١٣٥هـ، وبقوا خمس سنوات

يأخــذون العلم وأصــول المـذهب الأبـاضي عن إمـام الأبـاضيـة الأكـبر أبي عبيـدة التميمي. ومهـما يكن من أمـر، فإن الروايات الأباضية تشير إلى أن أبا عبيدة كان يحبذ اختيار الدعاة من السكان المحليين.

وقـد نظم أبـو عبيـدة العـلاقة بين مركز الدعوة في البصـرة وحملة العلم. وإذا حدث خلاف بين أفـراد حملة العلم في أى من الأمصـار فكـان عليهم العـودة لمشـايـخ البصـرة للنظـر فيـه والعمل على حله. وكثيراً ما كان أبو عبيـدة يرسـل أحـد أصحـابه المعروفين بالحصافة والعلم للنظـر في مثـل هذه الطـوارىء. وكـان رسـوله في معظم الأحيــان حاجب الطــائي الــذى كان ساعـده الأيمن ومستشـاره الأول وكان المسؤ ول عن الشؤ ون العسكرية والمالية وشؤ ون الدعوة خارج البصرة. ومن أمثلة ذلك ما حدث بين أتبـاع الـدعـوة من أهل حضرموت. فقد وقع الخــلاف بينهم وقبض فريق على رئيسهم عبــد الله بن سعيد وشدوه في الحديد وبايعوا رجلاً آخر يقال له حسن بينما خالفتهم طائفة أخرى. واتفق الفريقان على تحكيم مشـايـخ البصـرة في الأمـر وأرسلوا إلى البصرة يعرضون مشكلتهم على الامـام ويطلبـون منـه النصـح والارشاد فأرسـل لهم أبـو عبيـدة حاجب الطـائي في موسم الحج، وبعث لهم يخبرهم بذلـك ويأمـرهم بمـوافـاة حاجب في

الموسم. وصدع الجميع الأمر شيخهم أبي عبيدة، ووافى الحضارمة حاجباً في مكة وتشاوروا معه في أمرهم وتوصلوا إلى حل مناسب يخدم دعوتهم ويجمع شملهم.

استطاع الأباضية نتيجة للتنظيم الدقيق والدعاية النشطة والحذرة أن يكسبوا أعواناً كثيرين في مناطق متعددة من الدولة الاسلامية خلال الربع الأخير من القرن الأول الهجرى. وفي بداية القرن الثاني الهجرى وبعد أن اعتلى يزيد بن عبد الملك عرش الخلافة (١٠١هـ ـ ١٠٥هـ) حدثت بعض التطورات السياسية التي أدت إلى بروز جماعة متطرفة من بين الأباضية تنادى بوجوب الثورة. فقد ثار يزيد بن المهلب الذى كان قد هرب من السجن اثر وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز واحتلّ البصرة بعد أن هزم واليها وحرّر اخوته وأقاربه من سجنه. ثم قام بدعاية واسعة انضمّ إليه على أثرها عدد كبير من أهل العراق وامتد نشاطه فشمل الأهواز وكرمان وفارس حتى السند. ولما علم الخليفة بهذه الانتصارات التي أحرزها يزيد بن المهلب أرسل إليه جيشاً كبيراً بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد واستطاع الجيش الشامي أن يهزم الثوار في معركة العقر سنة ١٠٢هـ وقتل فيها يزيد بن المهلب نفسه وهرب بقية أقاربه واخوته إلى قندابيل في السند. ولحق

بهم هلال بن أحـوز التـميـمي على رأس قوة كبـيرة فحـاصـرهم وألحق بهم هزيمـة منكـرة وقتل معظم أفراد الأسـرة المهلبيـة بينـما أسـر الباقون مع نسائهم وأطفالهم وعوملوا معاملة سيئة حتى انهم تعرضوا للبيع في السوق كالرقيق .

كان لهذه المعـاملة السيئـة التي لقيها المهالبة ، قادة الأزد وزعـماؤهم ــ أثـرهـا الكبـير في إثـارة غضب الأزد وسخطهم على الحكم الأموى . ولم يقتصر ذلك على أزد العـراق وخـراسـان بل تعـداه إلى أزد عمان . وأدى ذلك بالتـالي إلى حنق الأبـاضيـة في البصـرة وخاصة أن عدداً كبـيراً منهـم كان ينـتمي إلى قبيلة الأزد ومنهم عدد من المهـالبـة أنفسهم . والحقيقـة أن قضية المهالبة قد ربطت منـذ أيـام جابـر بن زيد بالقضية الأباضية حيث كان أي خير أو شر يمس هذه الأسـرة ينـعكس على الحـركـة الأبـاضيـة وعلى علاقتها بالسلطة الحاكمة . ومن المؤكد أن عدداً من المهـالبـة وأزد البصـرة الـذين لقوا مصرعهم على أيـدى الأمـويـين وأعـوانهم كانوا من الأباضية ومن بينهم عبـد الملك بن المهلب . ولـذلك فقد نقم الأباضية في البصـرة على الحكم الأمـوى بعـد قمع ثورة يزيد بن المهلب وضـاقـوا ذرعاً بسياسة ولاة البصرة تجاه أنصارهم من الأزد . وارتفعت أصـوات بعض مشـايخهم بوجـوب

الانتقام وإعلان الثورة ومن بين هؤلاء: الشيخ الأباضي أبو نوح صالح الدهّان وبعض أفراد الأزد الذين نجوا من الموت والهلاك، ومن بينهم عاتكة أخت يزيد بن المهلب المعروفة بحماسها الشديد للمذهب الأباضي وتفانيها في خدمته. ولكن الامام أبا عبيدة كان يرى أن الوقت لم يحن بعد لاعلان الثورة المسلحة، ورفض بشدة آراء المنادين بها. وحبّذ أبو عبيدة أن يقوم أتباعه بثوراتهم في أماكن نائية بعيدة عن متناول السلطة المركزية. وكان في تنظيمه، يخطط لمثل هذا العمل ولكنه كان يتحين الفرص المناسبة والملائمة لكل قطر حتى يأمر أتباعه فيه بالخروج. ولذا فقد قاوم آراء أتباعه المنادين بالثورة وبقي الأباضية طيلة فترة يزيد بن عبد الملك محافظين على سرية حركتهم متجنبين كل ما يثير السلطات حتى لا يواجهوا نفس مصير الأزد والمهالبة. وقد كان موت يزيد بن عبد الملك واعتلاء أخيه هشام الخلافة (١٠٥هـ/٧٢٤م ـ ١٢٥هـ/٧٤٣م) وتعيين خالد القسرى والياً على العراق فرصة مناسبة ساعدت أبا عبيدة على إقناع أصحابه بالتحلي بالصبر. فقد أتسمت فترة ولاية خالد القسرى باللين والتسامح ليس مع الأباضية فحسب بل مع معظم المعارضين للحكم شريطة أن لا يرفعوا السيف في وجهه. وبلغ به التسامح أن بعض مشايخ الأباضية كانوا يشتمونه من على منابر

المساجد كما كانوا يؤلبون الناس ضد عامله على البصرة، القاضي المعروف بلال بن أبي بردة، ولم يمسسهم بضر. وقد تزعم هذه الحملة الدعائية ضده أحد شيوخ الأباضية البارزين وهو أبو محمد النهدى. وعندما عزل خالد القسرى وعين بدلاً منه يوسف بن عمر الثقفي أتبع الأخير سياسة قاسية مخالفة لسياسة سلفه واستعمل العنف والشدة ضد المناوئين للسلطة حتى لو لم يرفعوا السيف في وجهها.

في ظل هذه السياسة التي أخذ يمارسها الوالي الجديد تعرّض أبو عبيدة لضغط جديد من بعض أتباعه في وجوب التحرك والخروج. ويبدو أن أبا عبيدة قد أدرك أنه ليس بوسعه الاستمرار في مقاومة رغبات بعض أصحابه ومشايخ دعوته لوقت أطول ولكنه رأى في الوقت نفسه أن الخروج على طريقة متطرفي الخوارج أو على منوال الثورات الأخرى التي قامت في العراق لن تؤدى إلى نتيجة طيبة وستقمع بعنف وشدة وقد تضيع بعدها الدعوة ويصعب تنظيم أصحابها من جديد. لذا قرر السير في الانتقال من طور الكتمان الى طور الظهور بحذر شديد متخذاً خطوات تنظيمية جديدة في هذا الشأن كان لها أثر كبير في انتصار الدعوة وإعلان إمامة الظهور، ليس في البصرة، ولكن في الأمصار الأخرى البعيدة عن

مركـز السلطـة المـركـزيـة والتي كان أبو عبيدة يرى، من قبـل، أن أى نجـاح لدعـوتـه سيكـون في هذه الأمصـار النائية ولذا فقد ركز جهوده وجهود دعاته على سكان تلك الولايات الواقعة على أطراف الامبراطورية الاسلامية.

كانت خطـة أبي عبيـدة مختلفـة عن خطط كل ما سبق من ثورات وحـركـات وكـانت ترمي إلى إقنـاع المتطرفين من أصحابه بأنه ليس أقل حماساً منهم للوصول إلى الهـدف الأسمى ولكن بعـد التأكـد من أن الأمـر قد اعـدّ له الاعداد الكافي والضروري. وتبعاً لذلك قرر أبو عبيـدة أن يعـزل نفسـه وأصحابه بقدر الأمكان عن بقية المسلمـين (المخـالفين) ويكّون ما يمكن أن نسميه تجوزاً «المجتمـع المغلق» والـذى أطلق عليـه جماعة المسلمين. وحـذّر أصحـابـه وأتبـاع دعـوتـه من التعـامل مع الولاة والحكـام وطلب منهم عدم قبـول أى منصب وتنـاول أي مال منهم. وعلى الرغم من أن هذه الأمور كان مسموحاً بها في زمن سلفـه جابـر بن زيـد فإن أبـا عبيـدة وجد من الضـروري في هذه المـرحلة إتخـاذ مثـل هذه الاجراءات حتى يحافظ على سرية الحركة ويمنع الاغراءات لبعض أتباع الدعوة. ليس هذا فحسب بل أن أبا عبيدة لم يحبذ التـزاوج بين أتبـاع الدعوة وبقية المسلمين. ومع أن هذا الأمـر مشـروع في العقيـدة الأبـاضيـة إلا أن الامام فعل ذلـك من قبيـل المحافظة على عدم اختلاط أهل الدعوة

مع غيرهم ومنع تسرب أية معلومات عن نشاطاتهم وتحركاتهم بل وسلوكهم وتعاملهم فيما بينهم. وتشير الرواية الأباضية إلى أن أبا عبيدة هجر أحد أتباعه لأنه زوج ابنته لرجل غير أباضي بينما سمح جابر بن زيد من قبل بمثل ذلك. على أنه يجب أن لا يغيب عن البال أن هذا الاجراء كان مؤقتاً قبل إعلان إمامة الطهور ولم يكن قاعدة فقهية يجب اتباعها والأخذ بها في كل اظروف. وجدير بالذكر أن الاباضية في مرحلة الكتمان يجيزون بعض الأمور مثل تعطيل الأحكام وعدم إقامة الحدود لأنهم ــ طبقاً لوجهة نظرهم ــ ليسوا في وضع يسمح لهم بتنفيذ هذه الأمور.

بالاضافة إلى هذه التنظيمات فقد خلق أبو عبيدة من أتباعه مجتمعاً تسوده المودة والمحبة والاخاء في العقيدة وتسيطر عليه روح الجماعة. وكان يحثهم على التآلف والتعاون فيما بينهم. كما طلب من الأغنياء أن يكونوا عوناً للفقراء وسنداً لهم حتى لايضطر الفقير من جماعته لاحتياج أحد من المخالفين. وقد لبى الأثرياء منهم هذا الطلب بحماس منقطع النظير. وتورد المصادر الأباضية أمثلة كثيرة تشير فيها إلى تنافس الأغنياء منهم في سد حاجة الفقراء وإعطائهم.

يقول أبو سفيان مدللاً على ذلك: «سمعت بعض مشايخ من أدركت يقولون: أنا لنذكر إذا دخل شعبان أن كان الفقراء من المسلمين (الأباضية) لتأتيهم الأحمال بالسويق والتمر وما يصلحهم لشهر رمضان ولا يعلمون من بعث بها.. يأتي الرجل بالجمال حتى يقف به على باب الدار فيقول: أدخلٍ، فيكتب في خرقة كلوا واطعموا. ويروى أن شخصاً من الأباضية يدعى ديال بن يزيد كان يستأجر الأكسية في البرد الشديد.. بألف درهم أو أقل أو أكثر وليس عنده منها شيء وانما يتكل على الله وعلى المسلمين (الأباضية). ثم يفرقها بين الفقراء ويجمع ثمنها بعد ذلك من أغنياء الأباضية وكرمائهم. وكان الداعية الأباضي، أبو الحر، موسراً جداً وتأتيه غلته سنوياً فيقسمها نصفين، فيفرق نصفها في فقراء المسلمين (الأباضية) وفي معاونتهم. ليس هذا فحسب بل أن أغنياء الأباضية كانوا يتسابقون في دفع الديون المتبقية على من يموت من أصحابهم. يقول أبو سفيان: «مات حاجب وعليه دين من المسلمين ليغسلوه..... فقال لهم قرة: يا قوم. ما تقولون في دين هذا الرجل؟ فابتدر ثلاثة رجال وقره رابعهم وضمنوا دينه. قال: ودخل الفضل بن جندب وكان من خيار المسلمين (الأباضية) وكان موسراً فأخبروه.. فقال لهم الفضل: دينه عليّ دونكم حتى أعجزه عنه ولا يبقي لي مال».

ولم يغفل أبو عبيدة ومشايخ الأباضية في البصرة عن أتباعهم في الأمصار الأخرى وخاصة أنهم يحتاجون بشكل دائم إلى المساعدات المالية والمعنوية حتى يستطيعوا الصمود، ولكي يستعدوا بشكل فعال للوقوف في وجه أى خطر يتهددهم. أضف إلى ذلك فإن جماعات الأباضية خارج البصرة كانت في بعض الأحيان تواجه بعض المشاكل الطارئة ولابد لحل هذه المشاكل من الرجوع إلى أئمة البصرة ومشايخها. ومن هنا فقد برزت الحاجة لايجاد نوع من التنظيم يتولى الاشراف على كل هذه الأمور ويضمن للدعوة استمرارها وتطورها ويهيء لها بالتالي سبل النجاح والنصر. ولتحقيق ذلك أنشأ أبو عبيدة في البصرة ما يمكن أن نسميه بالحكومة الثورية السرية. وكان هو زعيمها وله الكلمة العليا في الشؤ ون الدينية من فتوى وقضاء والاشراف على الدعاة وحملة العلم الذين يرسلون للأمصار. وأنشأ بيت مال خاص بجماعة المسلمين (الأباضية) في البصرة ووكل لحاجب الطائي مهمة الاشراف على الشؤ ون المالية والعسكرية وشؤ ون الدعوة. وقد كان أبو عبيدة ذكياً في الربط بين الناحيتين المالية والعسكرية ووضعهما في يد رجل واحد قدير، وذلك لأن موارد بيت مال الفرقة كانت تستخدم لمساعدة الدعاة والثوار الأباضية في المناطق البعيدة. وكانت موارد بيت المال تأتي من مصدرين: الأول عبارة

عن ضريبة فرضها الامام على أتباعه في البصرة. ولا تذكر المصادر متى كانت تدفع ولا مقدارها. ولكن من الثابت أنها لم تكن تفرض بالتساوي بل تتفاوت حسب ثراء المكلّف ودخله. ولا تذكر المصادر أن أحداً من الاباضية قد تخلف عن دفعها لأنها تعتبر جزء من واجباتهم الدينية التي تساعد على انتصار دعوتهم التي تمثل الاسلام الحق كما كان موجوداً زمن الرسول ﷺ وفي عهد الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. ويبدو أن هذه الضريبة كانت تجمع عند الحاجة.

أما المورد الثاني لبيت المال فكان يأتي من التبرعات السخية التي يدفعها أثرياء الأباضية. ويبدو أن التجار الأباضية كانوا من الأغنياء المعدودين. وكانت تجارتهم تتجاوز البصرة وما جاورها وتصل إلى الصين والشرق الأقصى. ولم تقتصر هذه التبرعات على الأغنياء من الأباضية بل تعدتهم إلى بقية الناس من أهل الدعوة، رجالاً ونساء ــ وتخبرنا الروايات أن حاجباً دعا أحد أصحابه ويسمى أبو طاهر وطلب منه أن يجمع الصدقات من النساء وأوساط الناس لأنه لا يريد أن يكتب عليهم ضريبة. «فانطلق أبو طاهر فيمن أطلق معه من المسلمين، فلم يأتوا يومئذ امرأة ولا رجلاً إلا وجدوه مسرعاً فيما سألوه. وكان رجل من المسلمين لم يكن يرى أنه صاحب مال فدفع إليهم ثلاثة آلاف درهم. فلم تمس الليلة حتى جمع أبو طاهر عشرة آلاف درهم».

نتيجة لهذه التنظيمات الدقيقة الذكية، وانطلاقاً من روح الأخوة والتسامح والمودة والتعاون التي سيطرت على جميع أتباع المذهب في طوره الأول، وتتويجاً لنشاط حملة العلم المتحمسين فقد استطاعت الدعوة الأباضية أن تنتصر وتمكن أتباعها من إحراز نجاح باهر في أماكن مختلفة من أصقاع الدولة الاسلامية. وفي العقد الثالث من القرن الثاني الهجري استغل مشايخ الاباضية في البصرة الظروف التي كانت تمر بها الدولة الأموية وأوعزوا إلى دعاتهم وحملة العلم منهم إلى إعلان الامامة في كل من حضرموت واليمن وعمان وبلاد المغرب.

واستطاعوا تأسيس إمامة إباضية في كل من الأقطار المذكورة. ولكن هذه النجاحات لم تعمر طويلاً، فقد قضى الأمويون على إمامة حضرموت واليمن بينما قضى العباسيون على إمامة عُمان الأولى سنة ١٣٤هـ. ومنذ ذلك التاريخ أصبح تاريخ عمان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالمذهب الأباضي بحيث لايمكن فهم تاريخ هذا القطر بمعزل عن تاريخ المذهب الأباضي وتطوره.

أما في الجزء الغربي من بلاد الخلافة الاسلامية منذ قام الاباضية بجهود مضنية في سبيل انتصار دعوتهم. واستطاعوا بعد كفاح مرير تأسيس الدولة

الرستمية الأباضية في بداية العقد السابع من القرن الثاني الهجري. وقد عمرت هذا الدولة أكثر من قرن وثلث وقضى عليها الفاطميون نحو عام ٢٩٧هـ. وعلى الرغم من ذلك فقد بقي المذهب الأباضي قائماً في مناطق متعددة من بلاد المغرب حيث كون أتباعه مجتمعات خاصة بهم في مناطق نائية بعيدة عن متناول السلطات المعادية. ولاتزال بقاياهم موجودة إلى يومنا هذا في جبل نفوسة في ليبيا وفي جزيرة جربه في تونس وفي وادي ميزاب في الجزائر.

وهكذا فإن جهود مشايخ الأباضية وحملة العلم وتنظيماتهم السرية الدقيقة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين قد أثمرت تأسيس دول إباضية مستقلة في الجزير العربية وبلاد المغرب، كان لها دور هام ومجيد في التاريخ الاسلامي.

وفي ظل هذه الدول قام الاباضيون بجهود مشكورة في نشر الاسلام في أماكن كثيرة، وكان لهم فضل كبير في هذا الشأن في كل من أفريقية الشرقية وأفريقية السوداء جنوب الصحراء وبعض مناطق الشرق الأقصى.

كما قام الاباضيون بجهود كبيرة في سبيل إثراء المكتبة الاسلامية بالمؤلفات الكثيرة المتنوعة التي تتناول مختلف جوانب الفكر الاسلامي. ويمكن للباحث المطلع على هذه المؤلفات أن يسجل الملاحظات التالية حول بعض الأمور التي لاتزال محل نقاش وجدل بين الباحثين والمفكرين.

١ ـ أن الأباضيين ليسوا خوارج كما تزعم بعض كتب المقالات والملل والنحل وكما يدعى بعض الكتاب المحدثين الذين قلدوا هذه المؤلفات دون تدقيق وتمحيض. والواقع أن الاباضية لايجمعهم بالخوارج سوى إنكار التحكيم.

٢ ـ أن الاباضية حرموا قتل الموحدين وإستحلال دمائهم وحرموا استعراض الناس وامتحانهم كما فعل متطرفو الخوارج مثل الأزارقة والنجدية.

٣ ـ ان الاباضيين ينظرون إلى الدين نظرة واحدة متكاملة لافصل فيها بين المظاهر الروحية والمادية ولا طغيان لاحداهما على الأخرى. وتبعاً لذلك فقد أنكروا التصوف ورفضوه.

٤ ـ إن المدقق في المصادر الفقهية الاباضية يجد أن أصحاب المذهب الاباضي من أكثر المسلمين إتباعاً للسنة الشريفة والاقتداء بها. أما ماتلصقه بهم بعض المصادر من تهم فإنما هو ناتج عن أحد أمرين: الجهل أو التعصب.

٥ ـ أنهم وحدهم الذين طبقوا مبدأ الشورى في الحكم بعد الخليفتين أبي بكر وعمر.

أيها الاخوة :

في ختام حديثي لابد لي من القول : إن الوحدة العربية والتضامن الاسلامي يستدعيان منا أن نحكم العقل والعدل في علاقاتنا جماعات وأفراداً. وإن زوال الفرقة بين أتباع المذاهب الاسلامية أمر هام وضروري لتحقيق حريتنا ووحدتنا ومستقبل أجيالنا. إن الدين واحد والمصدر واحد ولا مبرر للفرقة والاختلاف بين المسلمين إن هم حكموا قول رسول الله ﷺ تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

المطبعة الشرقية ومكتبتها
مسقط - سلطنة عمان